نظرية الحتمية القيمية : قراءة تبسيطية للسياق والمبررات والمنهج

ملخص

يستهدف هذا المقال تبسيط بعض أفكار المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي . هذه الأفكار المعروفة في بحوث علوم الإعلام والاتصال باسم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام.
هذه النظرية أو محاولة البحث تقدم نمطا جديدا في التفكير وفهم الظاهرة الاتصالية يأخذ في الحسبان متغير القيمة كأساس للتفسير.
هذا المتغير الذي أهملته جل الدراسات والأبحاث في الغرب لكونه يحمل الخصوصية أو البصمة التي تميز كل مجتمع وتحدد نظرته للظواهر. تلك البصمة التي تشكل معرفتها عائقا أمام عولمة الأفكار وتنميط المناهج.
يأتي هذا المقال تلخيصا لهذه النظرية من خلال تتبع سياقها وإبراز أسسها وبيان علاقتها بباقي النظريات في الغرب والعالم العربي.

أ . محمد عوالمية

قسم علوم الإعلام والاتصال
جامعة عنابة
الجزائر

Résumé

L'objectif de cet article est d'expliquer la pensée en matière de l'information et de la communication du professeur et théoricien en communication Abderrahmane Azzi sur sa théorie " le déterminisme de la valeur morale des média ou de l'information " (value media Determinism theory).
Les fondements de cette théorie sont présentés dans leur contexte historique et en relation avec les autres théories à l'occident et dans le monde arabe.

مقدمة

ظل العقل العربي يردد صدى الكتابات الإعلامية الغربية ترجمة وتبنيا بحكم نشأة علوم الإعلام والاتصال في البيئة الغربية ،وبسبب سيطرة الإنتاج الإعلامي بشتى مجالاته المكتوب والمسموع والمرئي على حياة الإنسان المعاصر في كل مكان، تلك السيطرة لم تدع مجالا كبيرا للعقل العربي لتصفية الكتابات الغربية، واستبعاد معطياتها الثقافية غير المتجانسة مع الخصوصية العربية بما تحمله كلمة العربية من محتوى يتجاوز اللغة واللسان. ونظرا لعدم حضور المجتمعات العربية في حقل الإنتاج لانشغالها بمسألة التحرر السياسي من جهة

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر2014.

ونظرا لعدم حضور المجتمعات العربية في حقل الإنتاج لانشغالها بمسألة التحرر السياسي من جهة ولاندماج نخبها في السياق الثقافي للمنتج من جهة أخرى، فقد تعسر نضج تفسيرات نظرية تنطلق من الذاتية الحضارية وليس من الواقع المفروض من قبل الآخر.

لقد شهد العالم العربي محاولات كثيرة للانبعاث والتجديد كان نصيب المسألة الإعلامية والاتصالية من فلسفتها ضئيلا ، نتيجة عدم الوعي الكافي بأهمية هذا المجال الحيوي، ونتيجة الفجوة الكبيرة التي كانت تفصل الإنسان العربي عن العصر. تلك الفجوة التي يمكن التعبير عنها بعدة قرون ضاعت على المجتمعات العربية منذ عصر الانحطاط الذي انتهى بشكل طبيعي بالاستعمار؛ أو ما يمكن التعبير عنه بالامتداد الحضاري للمجتمع الغربي الذي لم تضع عليه تلك القرون.

لقد انقسم المجددون إلى تيارين رئيسين تبنى أحدهما المقولات الغربية بشقيها الاشتراكي واللبرالي، وراح يمارسها في مجال الإنتاج المعرفي والفعل السياسي والاجتماعي، بصرف النظر عن مصادماتها النظرية والواقعية للخيارات الإستراتيجية للإنسان العربي. أما ثانيهما فانكفأ على نفسه باحثا في التراث عن أجوبة لمشكلات واقعية غير متآلفة مع مناهجه، رافضا مقولات الحضارة الغربية، غير قادر على إيجاد بدائل مقنعة لتلك المقولات.

في سياق هذه المعطيات ظهرت محاولات للاستقلال المعرفي في جميع المجالات ومنها الإعلام، حيث تعتبر نظرية الحتمية القيمية نمطا متميزا من تلك المحاولات، وهو ما تسعى هذه الورقة لتناوله بشكل مبسط، يستهدف إبلاغ محتوى النظرية إلى جيل من الطلبة والباحثين لم تتح له بشكل كاف إمكانية الاتصال المتفاعل مع الأدبيات المؤسسة لهذه النظرية. تلك الأدبيات المركزة والكثيفة والأكاديمية التي تعد - مع الأسف - غير متاحة لجيل يحتاج في تقديري إلى كتابات وسيطة - إن جاز التعبير - تمكنه من الولوج برفق إلى نظرية الحتمية القيمية لفهمها والعمل على تطويرها .

السياق العام للنظرية

ولد احتكاك النخب العربية بالثقافة الغربية بشكل مباشر أو غير مباشر، حالة من الصدمة دفعت بعض تلك النخب إلى تبني النموذج الغربي في تفسير كافة الظواهر، ومنها الظاهرة الإعلامية تبنيا مطلقا، ودفعت البعض الآخر إلى استيعاب الإنتاج النظري الغربي، وإعادة تكييفه أو إنتاجه من جديد بإخضاعه إلى الرؤية المرجعية للمجتمعات العربية. وفي طليعة هذا الصنف يقع الباحث الأستاذ عبد الرحمن عزي، الذي مكنته معايشته المباشرة للحضارة الغربية في مطلع ثمانينيات القرن الماضي من اكتشاف هذه الحضارة من الداخل، والوقوف على خلفية تفسيراتها للظاهرة الاتصالية ،تلك التفسيرات المادية التي تلخصت في الماكلوهانية المركزة على الوسيلة في تفسير تطور الظاهرة الاتصالية.

ذلك التركيز الذي يلغي الفروق بين مختلف الثقافات، أي يقدم الرسالة كمستوى تابع للوسيلة، وهو ما يمكن اعتباره تمهيدا لمفهوم العولمة الحقيقي، الذي يعني تنميط العالم وفقا لثقافة من يملك الوسيلة، ويتحكم في الإنتاج الإعلامي بكل مكوناته.

لم تكن تلك التفسيرات للظاهرة الاتصالية منفصلة عن سياق اجتماعي محكوم بثقافة، رددت النظريات الغربية المختلفة بعض صداها كل بقدر، وكل بما يقتضيه الحقل المعرفي الذي انطلق منه.كان على أمثال الأستاذ عزي إذن أن يتحكموا في الأدوات المنهجية التي تستخدمها النظريات الغربية من جهة، وأن لا يفقدوا ما تقتضيه خصوصيتهم الثقافية المغايرة من استقلالية معرفية، أو ما يمكن التعبير عنه باستثمار نتائج الحضارة الغربية، وهدايتها إلى أرشد السبل وأنفعها للإنسانية قاطبة من جهة أخرى.وقد كان لاتصال الأستاذ عزي بالبيئة الحضارية العربية بحكم نشأته وما خلفته لديه من محتوى ديني أو (قبليات لا شعورية) [1] حسب أحد الباحثين وهو ما سماه الأستاذ عزي بالرواسب الثقافية التي اعتبرها بنيات ثقافية كامنة غير شعورية يتردد صداها في الفعل الفردي والاجتماعي على السواء، [2] وبفعل عودته إلى الجزائر وما أثارته لديه من أسئلة وانشغالات حضارية أعادت وصله بالنسق الفكري العربي ، كما أشار إلى ذلك في أحد أبحاثه المحورية حيث قال: (والواقع إن عودتي المؤقتة إلى الجزائر والمحيط الثقافي الذي كان يكون أزمتها الفكرية والهويتية (من الهوية) جعلني أستقل تدريجيا عن البنية النظرية الاجتماعية الغربية، ولكن أدواتها ظلت حاضرة في مقاربتي لهذا المحيط المستجد رغما عني، ولقد مكنتني تلك الأدوات من أن أنظر إلى الذات والثقافة من زاوية خارجية، وكأنني أكتشف هذه الذات والثقافة من جديد، فكان ذلك حافزا أساسيا في النبش في التراث، فكتبت عن النظرية الاجتماعية الغربية الحديثة وابن خلدون، كما استوقفتني إسهامات مالك بن نبي في دراسة " مشكلة الحضارة" وإبراز الترابط البنيوي بين (الإنسان والتراب والزمن) فأضفت في دراسة أخرى عامل الإعلام في نظريته وبينت مفهوم (الأهلية القيمية) في دراسة مجتمع عصر المعلومات [3].

ضمن هذه التفاعلات ولدت نظرية الحتمية القيمية عند رائدها الأستاذ عزي الذي استطاع بسلسلة من الدراسات العميقة، أن يحول هما حضاريا إلى بديل أكاديمي متميز من حيث المضمون وأصيل من حيث المصطلح ومنفتح على المدارس الأخرى من حيث الاستفادة من أدواتها ما لم تصادم جوهر النظرية المبني على القيمة (كمتغير مستقل)[4] ضابط للمحتوى ، ولكيفية وزمن استخدام الوسيلة.

مبررات اعتماد القيمة كأساس للنظرية:

تتأسس نظرية الأستاذ عبد الرحمن عزي على القيمة التي تعني لديه(الارتقاء أي ما قد يسمو في المعنى، والقيمة معنوية وقد يسعى الإنسان إلى تجسيدها عمليا كلما ارتفع بفعله وعقله إلى منزلة أعلى) [5].

والقيمة مركوزة في الفطرة الإنسانية ، إنما قد تضمر في الممارسة بفعل التشوه الذي يصيبها من جراء التناول الخاطئ من قبل وسائل الاتصال التي أصبحت تمارس سطوة على الأفراد والجماعات.ولعل أبرز ما يبرر استناد هذه النظرية على الأساس القيمي المتين ما يلي:

الاتجاه الحضاري للنظرية

إنّ أصل القيمة الدين[6] قال الله تعالى: "دِينًا قيّمًا" وقال أيضا: "وَذلك دِينُ القَيّمة" [7] ويعدّ الدّين المركب - على حد وصف مالك بن نبي - الذي تتفاعل من خلاله وضمن إطاره كافة عناصر الحضارة.

ولا يتسنى للفكرة الدينية حسب قوله أن تكون مؤثرة إلا إذا كانت وثيقة الصلة بقيمها الأساسية،(وبعبارة أدق فإن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية في نظرنا، أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية) [8] لأن الدين وضع إلهي شامل لعالم الغيب والشهادة وكامل لا يحتمل النقص وواجب تبليغه ، فإن الرسالة الإعلامية للحضارة التي تتمثل ذلك الدين ينبغي أن تنسجم مع رؤية ذلك الدين التي تمثل مرجعية تلك الحضارة ، لذا ارتكزت نظرية الحتمية القيمية على الأساس القيمي الذي يعبر عن(الفكر المتميز)للحضارة الإسلامية، ذلك الفكر المنطلق من التوحيد (كجوهر للحضارة)[9] ، تتحدد ضمن تصوره كل العلاقات والاتجاهات والأهداف . كما هي في الحقيقة أي على أساس الصلة بالله الخالق الملك الوارث، فالأرض لله والإنسان يعمر هذه الأرض وفق منهج الله[10] الذي يشمل الحياة الدنيا والآخرة (الغيب والشهادة). والمسألة الاتصالية بناء على ما تقدم جزئية يجب تناولها ضمن هذا الاتجاه الحضاري، لتفادي الخروج بها إلى أنساق فكرية مغايرة كالمادية المتمحورة حول الوسيلة والمثالية التي تقدم رسالة غير متآلفة مع الواقع،(والعلمانية الشاملة والجزئية) ـ على حد وصف المفكر عبد الوهاب المسيري ـ التي تشتت القصد وتوقع الإنسان في اضطراب بين رؤى متباينة.

الطبيعة الاجتماعية للظاهرة الاتصالية

إن استقلال الظاهرة الاتصالية بعلوم تعالج شكلها ومضمونها ووظائفها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يغير من طبيعتها الاجتماعية ذلك أنها تنشأ في المجتمع وتساير تطوره وتحمل (قيمه) وتصوراته بمعنى آخر أنها تنمو في إطار المجتمع وليس العكس، ينسحب هذا على الرسالة والوسيلة كلتيهما (فالمجتمع يستمر في الوجود ليس بالاتصال ولكن في الاتصال الدال الحامل للشخصية القيمية ذات الأبعاد الحضارية والإنسانية) [11]. ولقد ظلت مسألة القيم غائبة أو مغيبة في الدراسات الغربية المؤسسة بسبب اعتبار

مبحث القيم مبحثا تجريديا خاصا بالفلسفة كما ذكر السعيد بومعيزة [12]، أو بسبب المشكلات التي يمكن أن تطرحها مسألة القيم من بحث في الخصوصية ، واتجاه إلى الثقافة وهو ما يهدد مقولات المدارس الغربية بالانحصار ، وهي دائما تتطلع إلى العالمية.

وما دامت القيم ليست محل اتفاق في المصدر خاصة كما تقدم، فإن المدارس الغربية لم تؤسس عليها ـ وإن أشار بعضها إليها أو إلى جزء منها ـ كما ذكر ذلك الأستاذ عزي حين قال: (وجزئيا فإن القيمي يتضمن المدلول في البنيوية والماهية في الظاهراتية والمعاني في التفاعلات الرمزية والحق والحقيقة والحسن في التأويلية النقدية)[13]، يضاف إلى ذلك أن تلك المدارس كانت تركز على المرجعية الاجتماعية في دراستها للمسألة الاتصالية ، تلك المرجعية التي تشهد تقلصا رهيبا للقيمة عدى القيم المادية النفعية الاستهلاكية التي تخص المجتمعات الغربية دون غيرها ، رغم السعي الحثيث لتعميمها ونشرها من قبل وسائل الإعلام من خلال تصديرها للمجتمعات في شكل منتجات إعلامية ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية.

هذا التركيز وما يمثله من خطر ناشئ عن اضطراب المرجعية الاجتماعية وسرعة تحولها الخاضع غالبا للسوق والربح ، إضافة إلى الأزمة القيمية التي تمر بها الإنسانية نتيجة إخفاق نماذج التحديث في تقديم بديل يرتكز على قيم يمكن أن تكون خادمة للإنسانية كافة.

كل ذلك دفع المفكر عبد الرحمن عزي إلى الارتكاز على المرجعية القيمية التي تعد في نظره ثابتة وذات مصدر يسمو على المرجعية الاجتماعية. يقول مبينا ذلك: (فإذا كان مصدر قوة نظريات الاتصال الغربية المرجعية الاجتماعية المتغايرة فإن ثقل نظريتنا وتميزها يكمن في المرجعية القيمية غير المباشرة، فالقيمة تؤسس الإنسان ولا يكون هذا الأخير مصدر القيمة بل أداة لها) [14] وفي تصوري فإن هذا التأسيس لا يتم خارج المجتمع ولا يتم بمعزل عن الأدوار الكبيرة التي تقوم بها وسائل الاتصال في مجال التنشئة الاجتماعية، أو ما يمكن التعبير عنه بإكساب الأفراد القيم التي يؤمن بها المجتمع، ذلك واضح من خلال ملاحظة حجم أو نسبة ما سماه المفكر عبد الرحمن عزي بالزمن الإعلامي والذي يعني ببساطة ما تستغرقه وسائل الاتصال من وقت الفرد، هذا الزمن الذي ينمو بشكل متسارع وكلما ملئ بمحتوى إيجابي صار (دالا) متحركا في الاتجاه الصحيح اتجاه القيمة. وكلما شحن بمحتوى سلبي صار عبثيا مشتتا للزمن القيمي والاجتماعي على السواء وكانت نتيجة ذلك حتما تسفل الإنسان وإخلاده إلى جواذبه الأرضية الغرائزية وهو ما يفسر استهلاك الجمهور للمواد المضادة للقيم كأفلام العنف والجنس، وإضاعة الوقت في تصفح المواقع بلا هدف ، وسيادة التعرض للمحتوى الترفيهي على حساب التعليمي، وكثير من مثل هذه المظاهر التي يضيق مجال البحث عن حصرها[15].

علاقة الثقافة بالقيم ووسائل الاتصال

تتحدد العلاقة بين الثقافة والقيم ووسائل الاتصال انطلاقا من فهم الثقافة على أنها كما قال مالك بن نبي: (مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.)[16] ؛ وإلى مثل ذلك ذهب الأستاذ عزي بتعريفه للثقافة على أنها (كل ما يحمله المجتمع الماضي وما ينتجه الحاضر والمستقبل من قيم ورموز معنوية أو مادية وذلك في تفاعله مع الزمان (التاريخ) والمكان (المحيط) بماضي ذلك النظام الاجتماعي انطلاقا من بعض الأسس (القيم) التي تشكل ثوابت الأمة وأصولها (البعد الحضاري). [17]

فالثقافة بهذا المفهوم تمثل نظرية في المعرفة وطريقة أو منهج في السلوك ومنهجية في الإنجاز وعمارة الكون، [18] انطلاقا من قيم ثابتة مصدرها علوي غير خاضعة للتحولات الظرفية، وعليه يمكن اعتبار الثقافة معايشة الواقع انطلاقا من القيم)، [19] وكي تتم هذه المعايشة لا بد من تجسد الثقافة في رسالة يمكن تداولها من خلال كافة أشكال الاتصال، انطلاقا من الأسرة إلى الوسائل الجماهيرية لضمان انتقال ثقافة المجتمع من جيل إلى جيل.

ليس معنى هذا أن الناقل الوحيد للثقافة هو هذه المؤسسات فقط، إنما معناه أنها تساهم- إذا استخدمت استخداما قيميا - مساهمة فعالة في صيانة ثقافة المجتمع وضمان استمرار تأثيرها الإيجابي في أجياله الصاعدة لوقايتها من (الأحزمة الثقافية الوافدة)التي كثيرا ما تصادم قيم المجتمع ، وتبدد جهوده وطاقاته في غير صالحه.

إن على المجتمعات العربية الإسلامية إذن أن تستعيد ثقافتها على مستوى المعرفة والممارسة قبل التفكير في امتلاك وسائل الاتصال وتكديسها، لأن تلك الوسائل ستصبح مرتعا خصبا لثقافة الآخر. وحسب نظرية الحتمية القيمية فإن استعادة الثقافة في هذه المجتمعات تمر حتما عبر (استعادة المكتوب) [20] (لأن المكتوب يمكن من جهة من إحداث التراكم المعرفي، ومن جهة أخرى يمكن من التأمل والمعالجة العميقة والمتأنية للمعاني. تلك المعالجة التي تؤدي إلى التحكم في الإنتاج الإعلامي، وتعصم المجتمع من الانتقال السريع إلى ثقافة (الصورة) ، والقفز على المراحل الطبيعية التي أوصلت المجتمعات الغربية إلى هذه الثقافة.

لقد ظنت المجتمعات العربية أن اللحاق بالحضارة الغربية يتم بتجميع منتجاتها، والمسارعة إلى اقتناء كل جديد سواء كان جهازا متطورا أو فلما جديدا أو نمطا استهلاكيا للطعام واللباس ، فأنفقت ولا تزال على ذلك أموالا طائلة ولم تدرك بعد أنها بذلك تعمق تبعيتها ، وتضاعف من مديونيتها الحضارية (21) وكان الأجدر بها الاتجاه إلى الاستثمار في الموارد البشرية بتأهيل الإنسان لأداء دوره في بناء حضارته ضمن ثقافته وقيمه، والانتقال من الفكرة إلى الشيء على حد قول ابن نبي، أو (من الثقافة إلى وسائل الاتصال وليس العكس) كما يقول الأستاذ عزي(22).

إن تردد هذه المجتمعات في المعالجة الجادة لمشكلة المكتوب وكيفية مساهمته في استعادة الثقافة ، يرجع إلى عدم الجرأة على تناول مشكلة القراءة في هذه المجتمعات وخاصة لدى الفئات القيادية من الطلبة والباحثين، حيث نلاحظ تراجعا مستمرا في كمية ونوعية ما يقرأ ، ولعل من أسباب ذلك ما توفره تكنلوجيا المعلومات ووسائل الاتصال من يسر في الوصول إلى المعلومة التي يحتاجها الفرد فأصيب هذا الأخير بنوع من الكسل ، فأصبح ناقلا للمعلومة غير مدرك في أحيان كثيرة لسياقها الاجتماعي والمرجعي ؛ وهو الأمر الذي جعل كثيرا من المثقفين يعتنقون - عن غير وعي - أطروحات ورؤى غير منسجمة مع قيمهم وثقافتهم.

إن مشكلة القراءة تقود حتما إلى مشكلة الكتابة والتأليف، فالفرد الذي لا يقرأ أو يقرأ قراءة غير موجهة ثقافيا سينتج فكرا رديئا ومحتوى متورطا في ثقافة الآخر، أو يعزف عن الكتابة كما هو حال كثير من المثقفين في مجتمعاتنا.

ولعل من نافلة القول، أن القراءة والكتابة تؤثران على الرسالة التي تحملها وسائل الاتصال أو الإنتاج الإعلامي بجميع مركباته، كما تحددان مدى فعالية الاتصال في المجتمع ومدى قدرته على إشاعة القيم بين أفراده أولا ثم الانتقال بها إلى الفضاء العالمي المفتوح.

بعض القضايا المنهجية المرتبطة بنظرية الحتمية القيمية

لعل ما طرح كثيرا من التساؤلات ، الطبيعة المنهجية لنظرية الحتمية القيمية ، وما إذا كانت ذات صلة بالنظريات السائدة داخل العالم العربي وخارجه، وهي أسئلة مبررة تتعلق بكل نظرية أو رأي جديد .ولمحاولة الإجابة الأولية عن شيء يسير من هذه التساؤلات ارتأيت الإشارة إلى بعض الجوانب المنهجية التي يمكن أن توضح هذه المسألة أكثر، وقد اقتصرت في هذا المقال على ثلاث فقط تتعلق الأولى بتسمية النظرية ودلالاتها ، وترتبط الثانية بصلة النظرية بنظريات الاتصال الأخرى ونظرية الإعلام الإسلامي بشكل خاص، أما الثالثة فتتعلق ببعض مواقف النظرية من الكتابات الإعلامية ومناهج البحث التي تعتمدها.

تسمية النظرية

في بداية إعلانه عن النظرية كتفسير جديد للظاهرة الاتصالية يصطبغ بالصبغة الحضارية سمى الأستاذ عزي نظريته بالحتمية النظرية القيمية ، ليضيف الدكتور نصير بوعلي إلى هذه التسمية مسمى جديدا هو الحتمية القيمية الإعلامية ، لتضيف الباحثة هند عزوز مسمى ثالثا هو الحتمية القيمية [23] ليستقر الأمر على تسمية النظرية بنظرية الحتمية القيمية. وقد استعرض الأستاذ نصير بوعلي هذه المسميات وبررها وفسرها ووجد الرابط بينها ووضعها في سياق نظريات الاتصال . فبعد استعراضه لتاريخ التسمية أشار إلى أن تسمية الأستاذ عزي تتجه إلى ما ينبغي أن يكون ،وتسميته هو تتجه إلى تقريب الفكرة وبيان ارتباط النظرية بالإعلام . ليبين بعد

ذلك أنه يمكن تسمية النظرية على أساس نظريات الاتصال، فنقول حسب التأثير الحتمية القيمية في الإعلام ،كما يمكن تسمية هذه النظرية حسب النظم بالإعلام القيمي على شاكلة الإعلام اللبرالي. إلى جانب إمكانية التسمية على أساس النموذج فتسمى بنموذج عبد الرحمن عزي الذي يستوعب نموذج لاسويل وماكلوهان، بل يضيف إليهما النظام الاجتماعي والبعد الحضاري. [24] ومهما يكن الاسم فإن المناقشات التي دارت حوله والتطورات التي شهدها دالة على الثراء الفكري من جهة، والتفاعل الإيجابي بين معتنقي النظرية من مؤسسها إلى الباحثين والطلبة المرتبطين بنسقها من جهة أخرى.

علاقة نظرية الحتمية القيمية بالنظريات الأخرى

ما دامت كل نظريات الاتصال تسعى إلى تفسير الظاهرة الاتصالية من حيث مكوناتها وسياقها وأثرها والمشكلات التي تعالجها في مجال البحث، فإن نظرية الحتمية القيمية في الإعلام كما ذكر الأستاذ نصير بوعلي لا يمكن فهمها بمعزل عن النظريات الأخرى، إنما يجب أن تقرأ كإضافة نوعية لهذه النظريات، وتتم مقارنتها بتلك النظريات لاكتشاف مواطن ضعفها ومواطن تميزها في تناول مختلف مفردات العملية الاتصالية، على ألا تتم هذه القراءة بدافع البحث عن نقائص وعيوب النظريات الأخرى، إنما لإثبات تميز نظرية الحتمية القيمية وأصالتها وفعاليتها في تقديم بديل يطور قدرة البشرية على تفسير الظاهرة الاتصالية باعتبارها مجالا حيويا تتعاظم أهميته من يوم لآخر.[25] وحسب الأستاذ نصير بوعلي ـ الذي تعتبر كتاباته متميزة في فهم نظرية الحتمية القيمية ـ، فإن هذه النظرية لا تلغي بحال من الأحوال باقي النظريات، إنما تتعايش معها(على بعض المستويات الواقعية والمنطقية لكن تنفصل عنها على مستوى القيمة)[26] ، ذلك أن لكل نظرية مرجعية تنطلق منها وتفسر وفقها،سواء كانت تلك المرجعية اجتماعية كما هو شأن النظريات الغربية أو قيمية غير مباشرة كما هو شأن نظرية الأستاذ عزي كما تقدم .

وإذا كان إدراك الفروق بين نظرية الحتمية القيمية وبين النظريات الغربية متاحا ـ كما يبدو ـ للتغاير الواضح في المرجعية والمجال الاجتماعي كواقع تطبيقي، فإن الأمر يزداد تعقيدا حين نقارن هذه النظرية بنظريات مجاورة لها من حيث المرجعية والمجال الاجتماعي كما هو الحال بالنسبة لنظرية الإعلام الإسلامي ومشروع إسلامية المعرفة.

لقد كان الأستاذ عبد الرحمن عزي من المشتغلين بالإعلام الإسلامي وذلك منذ نهاية الثمانينيات،لكنه انتهى إلى أن فكرة الإعلام الإسلامي اكتفت بالنصوص، واستغرقت في البحث عن جذور للممارسة الإعلامية في التراث ولم تستطع التحكم في الأدوات المنهجية التي تتطور من خلالها فتحولت إلى خطاب ديني أكثر من نظرية تفسر الظاهرة بناء على مرجعية ثابتة،ولعل موقف نظرية الحتمية القيمية من نظرية الإعلام الإسلامي ملخص في قول الأستاذ عزي ردا عن سؤال حول هذا الموضوع: (ظهر مجال "الإعلام الإسلامي" في بعض الجامعات ذات الطابع الإسلامي، وهو يُعبر عن

جهد صادق في البحث عن التمايز، إلا أنه يفتقر إلى أدوات الدراسة والتحليل بحكم "عدم معرفة الآخر أو تجاهله أو إقصائه" وتحول مع الزمن إلى خطاب أكثر منه نظرية علمية. فالعلم في مستواه العقلي لا يحمل جنسية أو عقيدة معينة) [27]وقد جاءت نظرية الحتمية القيمية لتستكمل هذا النقص، وتخاطب الآخر باللغة التي يفهمها وبالمنطق المنهجي الذي يؤمن به، ولكن انطلاقا من مرجعية قيمية لا يملكها ولكنه محتاج إليها.

وكما أسلفنا فإن هذه النظرية لم تأت لإلغاء أية نظرية ، إنما قدمت بديلا أكثر نضجا على مستوى الأدوات التحليلية والمرجعية الحاكمة ؛ ويمكن لنظرية الإعلام الإسلامي الاستفادة من هذا البديل وتعميقه وتفعيله خدمة للتوافق المرجعي الموجود بينها وبين نظرية الحتمية القيمية.

وقريبا من هذا جاء موقف نظرية الحتمية القيمية من مشروع إسلامية المعرفة الذي نادت به نخبة من المهتمين بالعلوم الاجتماعية ، درس جلها في الجامعات الأمريكية حيث يرى الأستاذ عزي أن توافقا على مستوى المقاصد موجود بين نظرية الحتمية القيمية وبين فكرة إسلامية المعرفة ، ولكن اختلافا منهجيا كبيرا موجود أيضا بينهما ، ذلك لأنّ نظرية الحتمية القيمية تعمل على إنتاج المعرفة وفقا للمرجعية وتستفيد في الوقت ذاته من إنتاج الآخر ، في حين تستهدف فكرة إسلامية المعرفة أسلمة شكلية بوصف المنتجات الفكرية بالإسلامية حتى وإن أنتجت في بيئة مغايرة ومرجعية متغايرة. وهذا حسب الأستاذ عزي سطو على منتجات الآخر لا ينسجم مع النسق المعرفي والمنهجي الإسلامي.[28] ؛ فالمطلوب حسب تصور نظرية الحتمية القيمية ليس انتظار إنتاج الآخر لطبعه بطابع ما أو النظر في كونه مستوحى من التراث ، إنما المبادرة إلى إنتاج معرفة أصيلة متفتحة على مواضيع ومناهج العصر، لأن مجرد وضع المصطلح أو التسمية عملية لاحقة لتوليد المفاهيم وفهم الظواهر ووصفها وليست سابقة لها كما يذهب إلى ذلك المفكر عبد الوهاب المسيري.

وبعبارة أخرى الانطلاق من الذات وليس من الآخر . ولا يتحقق هذا إلا بتعزيز الانتماء المرجعي من جهة ، وتجاوز عقدة اعتبار الآخر مصدرا للمعرفة وليس موضوعا من مواضيعها على حد قول الأستاذ نصير بوعلي من جهة أخرى [29].

موقف نظرية الحتمية القيمية من الكتابات الإعلامية

تعد الكتابة ممارسة متميزة للانتماء الحضاري، ذلك أنها الوسيلة المثلى لانتقال المحتوى الثقافي للمجتمع من جيل إلى جيل. وبقدر توفيق الكتابة في هذه المهمة الجليلة يقاس توفيق المجتمع في الامتداد بثقافته في الزمان والمكان،لذلك نجد أن مؤسس نظرية الحتمية القيمية يلح في كتاباته على ضرورة الانطلاق من تصور نظري واضح لتجنب التورط في الأنماط الكتابية للآخر، تلك الأنماط الناشئة استجابة لحاجات خاصة بالمنتج وليست بالضرورة قابلة للتعميم على كافة المجتمعات، وضمن هذا السياق يحذر الأستاذ

عزي من الكتابات البيانية غير المنتجة فيقول إنها: (نوع من الكتابات السائدة المتسمة بالإنشاء والخطابة وإعادة إنتاج نفسها بالتكرار والمزيد من الوصف ليس إلاّ)[30] ويمثل لهذه الكتابات بدراسات الجمهور التي نشأت تلبية لاحتياجات المؤسسات التجارية الغربية، ومع هذا نستعملها في جل بحوثنا لا على اعتبارها ظرفية خاصة ولكن على كونها الكيفيات المثلى للبحث والقياس ونبني عليها النتائج. ونحن في الحقيقة محتاجون إلى نوع آخر من المعرفة (الإيجابية المعرفة التي تمكن من جمع شمل أو توثيق بيانات، حقائق أرقام ووقائع عن وسائل الاتصال الجمعي في المجتمع الذي تتواجد فيه.هذه المرحلة حاجة ماسة، وتمثل القاعدة المادية للمعالجة الفكرية أو التنظير) [31] فالتنظير هو الغاية وليس الاستغراق في البحوث والدراسات الكمية التي تصب في نظريات ناشئة في مجتمعات أخرى.

كما انتقد الأستاذ عزي في دراسات عدة تحليل المضمون السائد في دراسات التأثير والجمهور واعتبر أن أدواته غير ثابتة وأنه يفتقد الدلالة النظرية وبين أن شرط استخدامه (أن تقدم المستندات الكمية كدعامة أو سند لتحليل كيفي أوسع وأشمل [32].
ولعل ما يقود الباحثين عندنا إلى إيثار الدراسات الكمية الميدانية على الدراسات التنظيرية سببان، أحدهما عدم الثقة في إمكانية الإتيان بجديد نظري يصمد أمام النظريات السائدة، وهو ما تجاوزه ـ بكفاءة واقتدار ـ مؤسس نظرية الحتمية القيمية. وثانيهما عدم وعي المؤسسات البحثية والجامعات بأهمية التنظير وخطر استيراد الجاهز على البنيات الثقافية والقيمية للمجتمعات المستهلكة.

الخاتمة

ليس هينا قراءة وتبسيط نظرية كاملة في مقال موجز كهذا خاصة إذا تعلق الأمر بنظرية الحتمية القيمية التي تتسم أدبياتها بالعمق والكثافة التي تصل إلى حد التعقيد بالنسبة لمن لا يمتلك الأدوات التي أنتجتها أو للمتصل حديثا بهذه الأدبيات،ولكن استجابة للحاجة الملحة التي لمستها في أوساط بحثية،فقد حاولت التبسيط من غير تسطيح يشوه مضمون النظرية، وقد اعتمدت في ذلك على المراجع التي وصفها الأستاذ عزي بالمحورية.

لقد اقتصرت هذه القراءة على السياق الذي أنتج هذه النظرية، والمبررات التي جعلتها تنبني على العنصر القيمي ،وكذا محاولة البحث في ما يربط هذه النظرية بغيرها داخلا وخارجا. وقد ركزت على هذه العناصر لقناعتي بأنها الأهم بالنسبة للقارئ الجديد لهذه النظرية، ذلك القارئ الذي أريده أن يمتد من الأوساط الأكاديمية النخبوية إلى غيرها من الطبقات الاجتماعية التي ترتبط حتما بالإعلام، وتحتاج إلى تفسير قيمي يقيها من التعرض العشوائي الذي يبدد وقتها وجهدها. إن هذا الامتداد لا يمكن أن يحدث إلا من خلال ما سميته بالكتابات الوسيطة التي تشكل حلقة الوصل بين القارئ العادي والكتابات المؤسسة للنظرية. هذه الكتابات الوسيطة التي لا تستغني عنها أية نظرية أو فكرة تريد الانتشار تكتسي أهمية بالغة في تحويل النظريات من كتابات

مجردة إلى حاضرة في الممارسة الاجتماعية بمفهومها الواسع ، حيث تصبح النظرية مؤثرة في سلوك الأفراد ومساهمة بعمق في مسيرة التغيير التي تحتل المسألة الاتصالية ضمنها موقعا متميزا.

وإذ تدعو هذه الورقة إلى مزيد من هذه الكتابات الوسيطة ، فإنها تدعو كذلك إلى تكثيف البحوث المعمقة التي تدفع بنظرية الحتمية القيمية إلى مزيد من الارتقاء، تلك البحوث التي ينبغي أن تتمثل منهج الأستاذ المؤسس عبد الرحمن عزي فلا تتوقف عند ما أنتج إنما تتجاوزه فهما وتحليلا ونقدا وهو ما يلح عليه الأستاذ عزي صراحة وضمنا في عديد أبحاثه.

هوامش المادّة العلمية

1- بشير كردوسي:حفريات إبستيمولوجية لنظرية الحتمية القيمية في الإعلام المنتسبة إلى العلامة عبد الرحمن عزي
.http://sites.google.com/site/valuemediadeterminismtheory/home

2 - عبد الرحمن عزي : الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية:قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، الدار المتوسطية للنشر،تونس،الطبعة الأولى،2009،ص6.

3- عبد الرحمن عزي: دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، سلسلة كتب المستقبل العربي عدد 28، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،الطبعة الأولى،2003، ص ص10-11.

4- السعيد بومعيزة: لماذا نهتم بدراسة القيم؟
D:\azzi\sites.google.com\site\valuemediadeterminismtheory\saidbou.htm

5 - المرجع السابق، ص108.

6 - عبد الرحمن عزي:الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية:قراءة معرفية في الرواسب الثقافية،مرجع سابق،ص33.

7- الأنعام 161، البينة 5.

8- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين،دار الفكر،دمشق سوريا،1986،ص13.

9- يراجع كتاب جوهر الحضارة الإسلامية للمفكر إسماعيل راجي الفاروقي.

10- عبد الرحمن عزي: الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية،مرجع سابق،ص49.

11- عبد الرحمن عزي: الإعلام والبعد الثقافي من القيمي إلى المرئي،مجلة التجديد،الجامعة الإسلامية العالمية،ماليزيا،السنة الأولى،العدد الأول،يناير 1997،ص144 .

12- السعيد بومعيزة: لماذا نهتم بدراسة القيم؟ مرجع سابق.

13 - المرجع السابق،ص130.

14- عبد الرحمن عزي: دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مرجع سابق، ص12.

15 ـ عبد الرحمن عزي: الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية،مرجع سابق،ص ص 36-54 .
16- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 82.
17- عبد الرحمن عزي: دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز،مرجع سابق، ص ص106-107.
18 ـ الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة،الطبعة الثانية،2004،ص34.
19 ـ المرجع السابق،ص107.
20 ـ المرجع نفسه،ص49.
21 ـ مصطلح المديونية مصطلح اقتصادي ولكن الباحث الطيب برغوث يستعمله في مؤلفاته مضافا إلى الحضارة فيدل عنده على التبعية لحضارة الآخر كما يدل على كل الجهود التي تبذل لتعميق الفجوة بين المجتمعات العربية والحضارة الغربية من حيث وتيرة التطور.
22 ـ المرجع السابق،ص111 .
23 ـ نصير بوعلي: الإعلام والقيم: قراءة في نظرية المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2005 مقدمة الكتاب.
24- نصير بوعلي: مناظرة حول نظرية الحتمية القيمية
http://sites.google.com/site/valuemediadeterminismtheory/hiwarb
25 ـ المرجع نفسه .
26 ـ المرجع نفسه.
27 ـ السعيد بومعيزة: حوار مع الدكتور عبد الرحمن عزي
http://www.assala-dz11-01-24-19-46-13&catid=11:2010-08-15-10-18-
28 ـ المرجع نفسه.
29 ـ المرجع السابق.
30 ـ عبد الرحمن عزي: الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية،مرجع سابق،ص6 .
31 ـ عبد الرحمن عزي: دراسات إعلامية، مركز الطباعة لجامعة الجزائر،1992-1993، ص38.
32- المرجع نفسه،ص38.